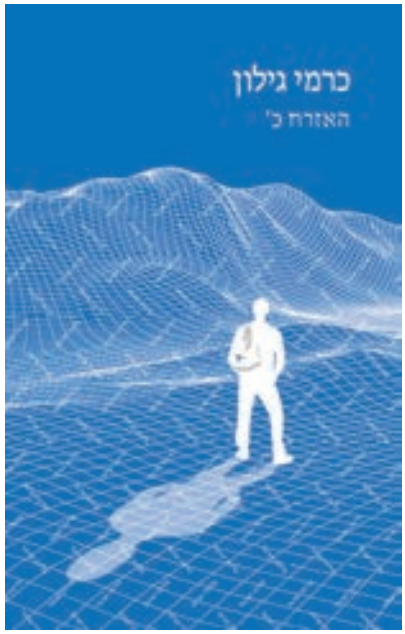

"المواطن (ك)" - سيرة ذاتية لكارمي غيلون

الكتاب: المواطن ك.
المؤلف: كارمي غيلون
الناشر: كونتينتو CONTENTO NOW
مكان النشر وتاريخه: تل أبيب/٢٠١٧
عدد الصفحات: ١٥٢
لغة الكتاب: اللغة العبرية

مقدمة

"ماذا يفعل صبي طيب مثلك في مكان كهذا؟" بهذا السؤال توجه فيليب غيلون إلى ابن أخيه كارمي غيلون حين سمحت الرقابة بنشر اسم رئيس جهاز الشاباك للعلن لأول مرة. ويضيف غيلون: حتى أنا كنت أسأل نفسي السؤال ذاته: ماذا يفعل شاب مثلي نشأ في بيت ليبرالي مسالم على رأس جهاز أمني بهذه القسوة؟ لكنه يضيف: لم أكن تماماً ذلك «الولد الطيب من القدس».

يتناول الكتاب الذي بين أيدينا سيرة حياة مؤلفه كارمي غيلون، الذي تدرّج في سلم القيادة في جهاز المخابرات الإسرائيلية (الشاباك) حتى وصل لمنصب رئيس الجهاز، واستقال منه في سياق تحمله المسؤولية الشخصية عن اغتيال رئيس وزراء إسرائيل السابق إسحق رابين في تشرين الثاني من العام ١٩٩٥، حيث اغتيل رابين على يد اليميني المتطرف يغآل عمير بالرصاص في تل أبيب. في حينه، اعتبرت وحدة حماية الشخصيات المهمة في المخابرات الإسرائيلية مسؤولة عن أمن رئيس الحكومة، ما دفع رئيس الجهاز للاستقالة معترفاً بالفشل الذي منيت به الوحدة التي يتحمل كرئيس المسؤولية عنها.

كما يقف الكتاب عند محطات مهمة في حياة غيلون حين ترأس القسم اليهودي في الشاباك، وصولا إلى كشف "الخلية اليهودية" في الثمانينيات من القرن الماضي. ويتناول المؤلف ما أسماها "دوامة استخدام الضغط الجسدي المعتدل" (التعذيب) لأخذ معلومات من معتقلين أمنيين فلسطينيين يشكلون خطراً فورياً على حياة مدنيين، وذلك في أوائل التسعينيات من القرن الماضي في ظل سلسلة من العمليات التي استهدفت مدناً إسرائيلية.

كما ويتناول الكتاب تعيين غيلون سفيراً لإسرائيل في الدنمارك، وما رافق التعيين من احتجاجات واسعة واتهامات له بارتكاب جرائم تعذيب بحق أسرى فلسطينيين. ويفرد غيلون مساحة يتناول فيها عمل لجنة «شمغار" التي شُكلت لفحص ملابسات الاغتيال، ويتعرض للجنة بانتقادات حادة على أن عملها اقتصر على التحقيق في الحادث بذاته دون التطرق حسب ما يراه ضرورياً إلى البيئة السياسية الاجتماعية التي سبقت الاغتيال، مثل التحريض على رئيس الحكومة من خلال فتاوى تنص على القصاص ممن يسلم أجزاء من «أرض إسرائيل" للعدو، وصولاً إلى إنتاج دمى تمثل رابين بثياب النازيين وكوفية الرئيس عرفات، أو تمثيل لجنازة مع وجود مجسم يمثل رابين موضوعا في تابوت مع إطلاق صفة خائن عليه في مظاهرات عدة.

ويختتم كارمي غيلون كتابه بذلك الشعور المر.. تلك السحابة الثقيلة التي رافقته في حياته الخاصة، على الرغم من كل النجاحات والمناصب التي شغلها.. ألا وهي وصمة اغتيال رابين، تلك الوصمة التي حصلت تحت مسؤوليته كرئيس لـ (الشاباك)، والتي يشير إلى أنها قد لا تكون الجريمة الأخيرة في مجتمع يميل أكثر فأكثر نحو اليمين. ويرى بذلك أن اغتيال رئيس حكومة أو زعيم سياسي آخر في إسرائيل على يد متطرف محرَض ما هو إلا مسألة وقت.

من الجذور.. إلى رأس هرم القيادة

ولد غيلون في حي رحافيا في القدس الغربية، في عائلة وصفها بالليبرالية التي تقوم على قبول الآخر واحترام الاختلاف في وجهات النظر، شغل والده كولين غيلون منصب مدعي عام الدولة، ووالدته سعدة، عملت نائبة للمستشار القضائي للحكومة. وقد عاش كما يقول طفولة صعبة بسبب مرض والديه الذين اضطرا للقيام بواجباتهم من البيت في أغلب الأحيان بسبب المرض، ولم يلبث الاثنان أن رحلا حين كان طفلاً، وتركاه يتيماً. ويضيف غيلون أن هذه الطفولة تركت فيه أثراً فعُرف في المدرسة كطالب إشكالي كثير المخالفات والتجاوزات، ويبين بذلك أن حياته يتيماً منذ الصغر إضافة إلى شخصيته الإشكالية قد أثرا كثيرا في تصميم شكل مستقبله لاحقاً. يقال إن التفاحة لا تسقط بعيداً عن الشجرة، لكن كارمي غيلون اتخذ مساراً مختلفاً عما هو متوقع بالنظر إلى ثقافة الأسرة وطبيعة عملها، ويقول، بالتالي إنه خالف التوقعات وذهب بعيداً، فخالف المثَل «لا تسقط التفاحة بعيداً عن الشجرة»، فليس بالضرورة أن تقع الطيور على أشكالها.

أمراء بلا تيجان

يشدد الكاتب في أكثر من مكان في كتابه على أهمية الثقافة التي تلقاها في بيت والديه، وذلك أن معنى الحياة عنده يتجلى في حجم المساهمة التي يقدمها الإنسان للجمهور، وكذلك في جودة تلك المساهمة. فيتناول تحت العنوان أعلاه بعض رفاق الطفولة في حي رحافيا حيث كبُر أولئك الرفاق الذين شغلوا مناصب رفيعة، ومنهم من لا يزال يشغل مناصب رفيعة في قيادة إسرائيل حتى كتابة هذه السطور.

يحب كثيرون إطلاق لقب «أمراء» على هؤلاء كما يقول الكاتب، ويضيف: أنا أرى في نفسي أميراً، لكن هذه اللقب يحمل معه الكثير من المسؤوليات والواجبات أكثر مما يقدم من امتيازات، كما ويحتاج (اللقب) إلى متابعة وصيانة؛ حتى لا يفقد بريقه ويظل مجرد لقب بلا مضمون. يذكر الكاتب من هؤلاء دان مريدور وإسحق هيرتسوغ وبيني بيغن وبنيامين نتنياهو. مريدور الذي تعرض للسخرية والتجريح لكونه غريباً عن مناخ البيئة السياسية الإسرائيلية الذي يتصف بالوحشية وعدم الرحمة تجاه الخصوم. وإسحق هيرتسوغ حفيد رئيس الدولة والذي ظهر في عيون المراقبين شخصاً بلا كاريزما ويفتقد للسحر المطلوب من قيادي يرأس معسكر اليسار الصهيوني المعتدل، لقد كان بحسب الكاتب «أميراً» أكثر من اللازم لقيادة معسكر المعارضة مثلاً. وثالث هذه الشخصيات هو بيني بيغن، ابن رئيس وزراء اسرائيل السابق مناحيم بيغن، "بيني قائد هادئ لا يثور بسهولة، وقد خسرته الحياة السياسية".

مقابل هؤلاء، وبالمقارنة معهم، يقول المؤلف: هنالك بيبي نتنياهو الذي يرمي لقب «أمير» جانباً عند أول فرصة مؤاتية ليصعد منبراً ويبدأ بإلقاء خطاب غوغائي. لقد تربى نتنياهو في أسرته على قيم صهيونية تصحيحية بالغة الوضوح، وأنا غالباً ما أميل إلى تصديق النوايا «الحسنة» لأشخاص من مثله

يضيف غيلون في معرض مراجعته السريعة لمسيرة بعض رفاق الطفولة، أولئك الذين وصلوا مراكز حساسة ولا يزال بعضهم يشغلها، فيقول إنه بجانب معرفته لنتنياهو وأولمرت تمام المعرفة، فإنه كذلك يعرف باراك جيداً، ويتساءل ساخراً: في أي المخازن يكدسون كل تلك القيم التي تربوا عليها وآمنوا بها، ليفسحوا بذلك المجال للتهور والتساهل في الرأي والقرار، والجري خلف المكانة.. والاحترام والمال؟

حين يدخلون عالم السياسة. ويضيف متسائلاً: ما الخلل الذي حدث مع نتنياهو في مسيرته السياسية؟ وكيف حصل ذلك؟ وهو الذي كان يَعدُ رفاق الطفولة أنه سيصير رئيساً للحكومة يوماً ما، أين بدأت عملية الفساد التي حولت نتنياهو إلى مجرد شخص يبحث عن فرصة؟ حيث أن اعتباراته محكومة دائماً وأبداً بالمردود الشخصي الذي سيعود عليه.

وينظر الكاتب بذهول وعدم تصديق إلى عملية صعود إيهود أولمرت ومن ثم هبوطه، ذلك الذي يرى فيه أيضاً صفات الأمير حسب تعريفه، يتساءل من أين جاءه الشعور أن من حقه الحصول على كل شيء؟

يضيف غيلون في معرض مراجعته السريعة لمسيرة بعض رفاق الطفولة، أولئك الذين وصلوا مراكز حساسة ولا يزال بعضهم يشغلها، فيقول إنه بجانب معرفته لنتنياهو وأولمرت تمام المعرفة، فإنه كذلك يعرف باراك جيداً، ويتساءل ساخراً: في أي المخازن يكدسون كل تلك القيم التي تربوا عليها وآمنوا بها، ليفسحوا بذلك المجال للتهور والتساهل في الرأي والقرار، والجري خلف المكانة.. والاحترام والمال؟

(ك) ينتمي إلى خدمة الأمن العام[1]

في الأول من تشرين الثاني من العام ١٩٧٢انضم كارمي غيلون إلى المخابرات الإسرائيلية، حيث بدأ عمله في قسم الحماية والحراسة المختص بحماية الطائرات والشخصيات والمباني والمؤسسات الإسرائيلية المنتشرة في إسرائيل وخارجها. بدأ مشوار الكاتب كما يذكر من لقاء بين مجموعة أصدقاء، حدث في ليلة من ليالي شهر آب الحارة في عام ١٩٧٢ في القدس، حيث توجه إليه صديقه أبراهام سنفيري والذي كان يشغل منصب نائب مسؤول الأمن في وزارة الخارجية الإسرائيلية، واقترح عليه العمل مع جهة أمنية تبحث عن مرشحين مناسبين لتعزيز قسم الحماية في الشاباك، خاصة بعد عملية ميونخ الشهيرة.

يتحدث الكاتب عن هذا التطور في حياته بحماسة جارفة طغت على اهتماماته الجامعية في حينها، حيث استُدعي لمقابلة رئيس قسم الأمن في وزارة الخارجية الإسرائيلية، والذي كان بدوره يعمل في الشاباك. وأخبره عن حاجة إسرائيل لتعزيز الأمن خارج حدودها، ليفهم تدريجياً أنه يتجند للعمل في قسم الحماية في المخابرات الإسرائيلية، وليس في وزارة الخارجية.

"الإرهاب اليهودي" والإمساك برأس خيط

بعد الانقلاب السياسي في إسرائيل، ووصول الليكود إلى سدة الحكم عام ١٩٧٧، قدَر رئيس الشاباك آنذاك أبراهام أحيطوف أن المواجهة الأمنية مع اليمينيين المتطرفين لم تعد واردة؛ وذلك لسبب واضح، وهو أن الليكود يمثل طموحاتهم ويعبر عن مواقفهم، لكن تقديراته لم تكن في مكانها.

انفجرت في الثاني من حزيران عام ١٩٨٠ ثلاث عبوات ناسفة، استهدفت الأولى رئيس بلدية نابلس في ذلك الوقت بسام الشكعة، وأصابته في قدميه ما أدى إلى بترهما لاحقاً، واستهدفت الثانية سيارة كريم خلف رئيس بلدية رام الله وأصابته بجراح خطيرة في رجله. أما الثالثة فقد استطاع خبراء من الجيش الإسرائيلي تفكيكها كما يروي غيلون، لكن خللاً في العملية أدى إلى إصابة ضابط في وجهه ففقد بصره جراء الإصابة، ولأنه كان من الطائفة الدرزية، لم يفوت الكاتب فرصة استنكار موقف اليمين المتطرف الذي أبدى أسفاً خجولاً على الإصابة، معتبرين أن لا خيار آخر أمامهم، متسائلاً: هل كانت ردة فعلهم ستكون كذلك لو كان المصاب يهودياً؟ كانت العبوة الثالثة معدة ضد إبراهيم الطويل رئيس بلدية البيرة، لكن تدخل الجيش كما ذُكر أعلاه حال دون استهدافه.

في أيلول من العام ذاته أصبح غيلون مسؤولاً عن القسم المختص بمتابعة الإرهاب اليهودي، وهو قسم يتابع المتطرفين

١ שב"כ أي الشاباك، وهي اختصار لثلاث كلمات بالعبرية (شيروت بيطاحون كلالي) ومعناها خدمة الأمن العام، وهو الاسم الرسمي لجهاز المخابرات الإسرائيلية. أما الحرف ك، فقد كان يشير إلى اسم رئيس الجهاز حتى العام ١٩٩٥ الذي كان نشره في الإعلام محظوراً، وفي عهد كارمي غيلون مؤلف الكتاب سُمح بنشر الاسم لأول مرة ليكون معلوماً للجمهور.

في عام ١٩٨٧ أنهى غيلون مهام عمله كرئيس للفرع اليهودي في الشاباك، وأصبح رئيس لواء الشمال في الجهاز. وهناك تعرف على أنطوان لحد قائد جيش لبنان الجنوبي، الذي تحالف مع إسرائيل فرأت فيه بطلاً يدفع ثمناً شخصياً ثقيلاً مقابل إخلاصه لها، بينما يراه غيلون مأجوراً يحركه الجشع والرغبة في الوجاهة والحكم.

من اليمين، وكذلك من اليسار المتشدد، وبالتالي نجح من خلال نشاطات استخبارية مكثفة بوضع اليد على خلايا متعددة حاولت تفجير مسجد قبة الصخرة في القدس بواسطة صواريخ لاو تطلق عن بعد. إضافة إلى خلية كانت تتحرك مساء الخميس ٢٦ نيسان ١٩٨٤ لزرع عبوات ناسفة في حافلات فلسطينية في محطة الباصات القديمة في القدس الشرقية وذلك لتفجيرها بعد ظهر يوم الجمعة، بحيث يضمن أفراد الخلية خلو الشوارع من مواطنين يهود عشية السبت. يشير الكاتب هنا إلى ما أسماه تساهلاً وعجزاً في مواجهة هذه الخلايا التي تم تقديم بعضها للمحاكمة، فمنهم من خرج في اليوم ذاته ومنهم من حكم لفترات لا تتعدى بضعة أشهر، وتم الإفراج عن آخرين من باب العفو العام الذي تبنته حكومة الليكود. وقد اعتبر الكاتب هذا التساهل تجاه أفراد الخلية اليهودية بمثابة إذنٍ مُبطَن للاعتداءات الإرهابية القادمة.

في عام ١٩٨٧ أنهى غيلون مهام عمله كرئيس للفرع اليهودي في الشاباك، وأصبح رئيس لواء الشمال في الجهاز. وهناك تعرف على أنطوان لحد قائد جيش لبنان الجنوبي، الذي تحالف مع إسرائيل فرأت فيه بطلاً يدفع ثمناً شخصياً ثقيلاً مقابل إخلاصه لها، بينما يراه غيلون مأجوراً يحركه الجشع والرغبة في الوجاهة والحكم.

عن غرف التحقيق.. وحدود القوة والمسؤولية

يخصص الكاتب هذا الجزء من الكتاب للحديث عما سماه «دوامة محققي الشاباك» و"حقيقة" أقبية التحقيق. ويركز جهده هنا لإظهار الجانب الإنساني في عنصر هو في النهاية موظف دولة، فرضت عليه الظروف القيام بأعمال من شأنها إنقاذ حياة أبرياء، يعمل في ظروف قاسية، غرف محكمة الإغلاق، جدرانها عارية من أي لوحة أو زينة، يوجد أمامه «مخرب» يجب أن يدفعه إلى الاعتراف والإفصاح عن معلومات حيوية من شأنها إنقاذ حياة أبرياء بشكل فوري. لا سيما في سلسلة تفجيرات طالت حافلات في القدس وتل أبيب خلال ١٩٩٤-١٩٩٥.

ولا يخفى هنا بأن مؤلف الكتاب يرى من واجباته تقديم أجمل صورة ممكنة لمكان عمل فيه عقوداً من الزمن.

يصف غيلون ما يقوم به هؤلاء في غرف التحقيق بأنه "العمل القذر"، الذي يتم تحت سطح الأرض دون علم المواطن الإسرائيلي؛ من أجل أن يعيش ذلك المواطن يومه بشكل طبيعي. فمن جهة أولى يجب أن يكون المحقق قاسياً بما يكفي لاستخراج معلومات من المعتقل، من جهة أخرى يجب ألا يتصرف بحقد وكيدية وألا يفقد أعصابه، لأنه مجرد لاعب أدوار، وعليه أن ينتبه إلى أن الحصانة التي بيده والصلاحية الموكلة إليه لا تخولانه تعريض حياة المعتقل للخطر أو تعذيبه بوحشية؛ لأن هذا من شأنه تقديم لائحة اتهام ضد المحقق وإدخاله السجن. وفي ظل هذه القيود والحدود والأهداف، على المحقق أن يعمل بحذر.

الشيطان يلبس البدلة البيضاء

يعرض الكاتب في هذا الفصل من الكتاب تعيينه سفيراً في الدنمارك، وذلك بعد سنوات من استقالته على خلفية اغتيال رابين، وتحمله مسؤوليةً شخصية في الإخفاق في حمايته. اختار غيلون عنواناً ساخراً لهذا الفصل؛ فإذا كانت البدلة البيضاء هي اللباس الرسمي لمراسم قبول السفراء في الدنمارك، فإن الشيطنة تعود إلى اعتماد أساليب تحقيق قاسية، مثل هز جسد السجين بعنف وبشكل متتابع لانتزاع معلومات من الأسرى الأمنيين. وقد تعرض لانتقادات واسعة ومطالبات بالمحاكمة، وذلك على خلفية أساليب التحقيق العنيفة التي استخدمها الشاباك، وكان غيلون مسؤولاً عن إقرارها والدفاع عنها. وفي هذه البيئة المعادية كما يصفها، تقرر تعيينه سفيراً لإسرائيل في الدنمارك.. واحدة من أبرز دول الرفاه واحترام حقوق الإنسان في أوروبا. وقد وصل قرار التعيين إلى أزمة حقيقية بين البلدين، حيث أصر رئيس الحكومة آنذاك أريئيل شارون، وإلا تعيين غيلون، وإلا فلا سفير لإسرائيل في الدنمارك.

اغتيال رابين، مقدمة لاغتيال سياسي قادم

لم يفوت الكاتب فرصة الوقوف عند لجنة التحقيق الخاصة في اغتيال رابين، انتقد غيلون عمل اللجنة واعتبرها عديمة الجدوى، بسبب أنها انشغلت بالتحقيق في الجريمة بوصفها فعلاً أدى إلى قتل، ولم تتطرق إلى البيئة الاجتماعية السياسية التي سبقت القتل ومهدت له، ومن هنا يرى غيلون أن الاغتيال السياسي القادم في إسرائيل هو مسألة وقت؛ لأن الظروف التي سبقت اغتيال رابين من تطرف وتحريض وعنف لم تتغير بل هي في تصاعد، خاصة في ظل سلطة اليمين الإسرائيلي المسيطر على الحكومة منذ عقد من الزمن.

ملاحظات وأسئلة ختامية

تضعنا بعض الكتب المكتوبة باللغة العبرية أمام تحدٍ، وخاصة التي لم تترجم بعد للعربية، كالذي بين يدينا، فبجانب تحدي اللغة، هنالك ترجمة المضمون إلى خلاصات أفكار وأحداث لا إلى مفردات، هنا بالذات يوجد تحدٍ آخر وهو اللمسة الأدبية، أو النكهة الروائية للكتاب، بعض الكتب التي اطلعت عليها وكتبت عنها مراجعات تلمس فيها أسلوب الأدب المشوق وعناصر القصة والرواية مع أن كاتبها رجل أمن سابق أو سياسي تهمه الوقائع والأحداث، فيأتي هدف سردها على حساب جمال التقديم والعرض، ومن هنا يبدو أن عرض الكتاب على محرر أدبي ليترك عليه لمساته هو واحد من أهم شروط نجاح الكتاب، وعليه أرى من وجهة نظري، أن الكتاب بحاجة إلى تلك اللمسة التي تشد القارئ وتسهل تجواله مع الكاتب بين السطور.

قدم كارمي غيلون في هذا الكتاب (المواطن «ك») سيرته الذاتية، ونقل ما يراه من موقعه كرئيس جهاز المخابرات سابقاً، صورة أقل ما يمكن القول عنها إنها قاتمة غير مطمئنة، لمجتمع تتعاظم فيه قوة الجماعات اليمينية المتطرفة، ويربط بين كشفه للخلية اليهودية وما سماه الإرهاب اليهودي في الثمانينيات وبين الأخطار الكثيرة المحدقة الآن، والتي ليس أقلها احتمال استهداف المسجد الأقصى باعتداء تفجيري على يد متطرفين يهود، حيث تغذيهم أفكار لحاخامات متطرفين، يتقلدون مواقع رسمية وتمولهم الدولة.

كثيرة هي الأسئلة التي تتولد أثناء القراءة، خاصة لقارئ فلسطيني، يقرأ كتاباً ألفه رئيس ما يسمى ذراع إسرائيل الطويلة، جهاز الشاباك. الجهاز الذي بفضل جهوده وجهود أخرى كثيرة يمكن أن تطمئن إسرائيل على مستقبلها. ما الذي يقود العديد من قادة الاجهزة الأمنية الإسرائيلية إلى تبني مواقف يسارية واضحة؟ أو على الأقل توجيه انتقادات حادة وإبداء معارضة شديدة لليمين؟ كارمي غيلون مثلاً. وقبله رئيس الموساد سابقاً مئير داغان. ورئيس الشاباك سابقاً يوفال ديسكن.

بعد الانتهاء من قراءة سيرة ذاتية لقائد أحد الأجهزة الأمنية الإسرائيلية (سابقا) ترى بشكل واضح مواقف يسارية وآراء متصالحة متعاطفة مع ضحايا الاحتلال (أي معنا). لم أسمع عن مسؤول وقف خلال سنوات خدمته ليقول: يكفي إلى هنا ويجب أن أستقيل! الظاهر أن المواقف اليسارية والانتقادات الحادة لسياسات اليمين تبدأ بالظهور بعد الانتهاء من الخدمة. أتساءل عن معناها وكيف يمكن قراءتها. هل هي مواقف اعتذارية؟! هل هي طريقة للتعبير عن الانتماء لمجتمع غربي وحر ومتسامح؟! أم أنها تعبر عن نضج سياسي لربما يتولد بعد استحالة حسم الصراع بوسائل عسكرية؟!

مراجعة: ماهر داود